كتب بالفرنسية

اغضبوا!

Indignez-vous!

Stéphane Hessel*
France: Éditions Indigène, 2010. 32 pages.

في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٠، أصدر ستيفان هيسل وهو في الثالثة والتسعين من عمره كتاباً لا يتعدى الأربعين صفحة سرعان ما أصبح ظاهرة في عالم النشر، إذ لقي رواجاً كبيراً وتكاد مبيعاته تصل اليوم إلى مليوني نسخة فيما يقرب من ٢٠ لغة.

وهذا الكتاب الذي يحمل عنوان "اغضبوا!" أقرب إلى المانيفستو منه إلى الكتاب، والكاتب يقول فيه إن "الغضب هو أساس المقاومة"، وإن الأسباب كثيرة في عالمنا الشائك لهذه الدعوة إلى الالتزام الاجتماعي والسياسي باسم المشاعر التي يثيرها الظلم: هيمنة الأسواق التجارية التي تهدد السلام، والركض لكسب أكثر، وللمنافسة المستمرة؛ الهوّة التي تفصل الأغنياء عن الفقراء؛ المعاملة السيئة التي يلقاها الذين لا يملكون أوراقاً رسمية، والمهاجرون، والغجر؛ أحوال كوكب الأرض؛ ضياع المكتسبات الاجتماعية كالتقاعد والتأمين الصحي؛ وغيرها من الموضوعات التي تستدعي، بحسب الكاتب، "ثورة سلمية".

هيسل شيخ غاضب في الثالثة والتسعين مثلما كان مقاوماً شاباً غاضباً في العشرين، وهو يتوجه إلى الشباب ويحثهم على التمرد، وعلى إيجاد معنى لمعركة تختلف كلياً عن معركة المقاومة، لأنها اليوم أكثر تعقيداً وتناقضاً بسبب ما يسيطر عليها من مشاعر الخوف والغبن، فضلاً عن العنف والمنافع. وكل ذلك في ظل ذوبان سياسي واقتصادي كامل.

ويمكن اعتبار هذا النداء أمراً أكثر منه شعاراً، وهو يذكرنا بدعوة: "تمردوا! ثوروا على الظلم الذي هيمن على مجتمعكم ولا تستسلموا للاّمبالاة. وإن وجدتم داعياً إلى الاستنكار، كما وجدتُ أنا في النازية، فستصبحوا مناضلين شجعاناً وملتزمين."

يقول شعار هيسل إن الغضب هو مفتاح الالتزام، فالقيم لم تتغير منذ أيام المقاومة، إلاّ إن أسباب الغضب اختلفت في عصرنا هذا. وكما يقول الكاتب، فإننا ما زلنا بحاجة ماسة إلى هذه القيم، وعلينا أن نحرص على بقاء مجتمعنا مجتمعاً نفخر به. وهو يذكّر الجيل الجديد بمنجزات فرنسا ما بعد الحرب: التعليم للجميع؛ الضمان الصحي؛ الصحافة المستقلة؛ تأميم مصادر الطاقة والمصارف الكبرى؛ إخضاع المصالح الخاصة للمصلحة العامة.

ويدور الكتاب حول محورين رئيسيين هما المثال الفرنسي،

(*) ولد في برلين في سنة ١٩١٧ لأب يهودي وأم بروتستانتية. وقد أوحت قصة والديه للمخرج الفرنسي فرانسوا تروفو بفيلم "جول وجيم" الذي نال شهرة واسعة في الستينيات.

درس هيسل في باريس، وحصل على الجنسية الفرنسية في سنة ١٩٣٧ وعلى شهادة الفلسفة من المدرسة العليا للمعلمين. التحق بديغول وبالمقاومة في لندن في سنة ١٩٤١، ولما عاد في مهمة إلى باريس في سنة ١٩٤٤ ألقى الألمان القبض عليه، وسُجن في معسكر بوخينفالد في ألمانيا، ثم نجا بأعجوبة من الشنق بانتحاله هوية مزورة. عُين في سنة ١٩٤٥ في الأمم المتحدة، ثم في لجنة حقوق الإنسان، وشارك في صوغ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر في سنة ١٩٤٨. التحق بالسلك الدبلوماسي، وقادته وظيفته إلى سايغون والجزائر ونيويورك وجنيف حيث أصبح ممثل فرنسا في الأمم المتحدة. وفي سنة ١٩٩٦ أدى دور الوسيط الرسمي في قضية المهاجرين الذين لا يملكون أوراق إقامة رسمية، وقال في مذكراته "الرقص مع القرن": "أنا معنيّ بمصير العمال المهاجرين باعتباري مهاجراً أصلاً". وفي حزيران/ يونيو ٢٠١٠، نادى بمقاطعة البضائع الإسرائيلية في إثر الهجوم الذي شنه الجيش الإسرائيلي على باخرة الحرية التي أتت لنصرة أهالي غزة. وحصل هيسل في مطلع هذه السنة على جائزة فرانز فانون لنشاطه الشجاع في مكافحة الاستعمار.

والمثال الفلسطيني. ويبحث المثال الأول في التجاوزات السياسية الراهنة للقيم الثورية الإنسانية الأصيلة، تحت إغراءات النموذج السياسي الاقتصادي الأميركي، ويرى الكاتب أن خطاب العولمة الذي أصبح يهيمن على تقاليد الديمقراطية الفرنسية، تجاوز بشدة المسار الذي أسسه خطاب الثورة أيام المقاومة الفرنسية.

أمّا المثال الثاني فيبحث في القضية الفلسطينية التي يكرّس لها الكاتب جزءاً كبيراً من الكتيّب. ويقول المؤلف أنه ذهب إلى غزة بعد زيارات عديدة للضفة الغربية المحتلة، وهو يندد بسياسة الكيان الإسرائيلي في غزة ويدين بصرامة العدوان عليها، داعماً حقوق الفلسطينيين، ومؤكداً أن أحد موضوعات الاستنكار الأساسية بالنسبة إليه هي هذه المسألة بالذات.

ويدعو هيسل إلى حل سلمي، ويعبّر عن أمله بأن يتمكن الفلسطينيون والإسرائيليون من العيش بسلام جنباً إلى جنب على الرغم من اقتناعه بأن الإسرائيليين لا يرغبون في ذلك، فهم "غير مهتمين فعلاً بالسلام، ويريدون الاحتفاظ بالمستوطنات وبالاحتلال، وهذا مخالف للقانون الدولي ولاتفاقيات جنيف، وأنا مدافع شرس عن القانون الدولي الذي يمرغه الإسرائيليون في الوحل." ويؤكد الكاتب أنه لا يمكنه تقبّل فكرة أن اليهود يقترفون جرائم حرب، لا بل جرائم ضد الإنسانية في الضفة الغربية وفي غزة خاصة، هم الذين عانوا جرائم حرب سعت لإبادتهم، ويضيف بأسف: "إن التاريخ لا يعطينا أمثلة للشعوب التي تستخلص العبر من تاريخها الخاص."

وفي المقابل، يقول هيسل إن الإرهاب غير مقبول لكنه مفهوم، ويكاد يكون طبيعياً، ويقر بأنه عندما يواجه شعب ضعيف الهيمنةَ المتجسدة بأساليب بالغة التفوق، فلا يمكنه أن يبقى مهادناً، "فاليأس ينفي الأمل."

ويدعو هيسل إلى وضع إسرائيل على قائمة الدول الاستبدادية التي يجب مقاطعتها، ويدعم فكرة تنظيم "محكمة راسل من أجل فلسطين"، التي أطلقتها ليلى شهيد، كما وقّع دعوة إلى مقاطعة البضائع الإسرائيلية كي تتوقف هجمات إسرائيل.

وتعرّض الكتاب ومؤلفه لكثير من الانتقادات من طرف المؤسسات المدافعة عن إسرائيل، والتي اتهمته بمعاداة السامية، كما رُفعت ضد هذا الكتاب الصغير ومؤلفه ما لا يقل عن ثلاثين دعوى قضائية، بينها موقف المدرسة العليا للأساتذة في باريس، التي ألغت ندوة كان من المقرر أن يعقدها ستيفان هيسل مع طلبة المدرسة، وذلك قبيل عقدها، إلاّ إن الجلسة انتقلت إلى الشارع، أمام مبنى "البانتيون" القريب. وقد اعتبر هيسل تصرف مديرة المدرسة العليا للأساتذة فضيحة في حق حرية التعبير وحرية الرأي.

وانتشر كتاب ستيفان هيسل في أوروبا والعالم بسرعة البرق وأصبح ظاهرة سياسية واجتماعية، كأنه أنشودة هذا الزمن التي تقول تماماً ما يجب أن يقال.

ومن هذا المنظار تظل الدينامية الثورية التي يشهدها العالم اليوم مثالاً جيداً للاستنكار العميق الذي يسعى الثوار للتعبير عنه بإصرار في الغرب كما في الشرق.

ومثالنا لذلك شباب إسبانيا الذين استوحوا غضبهم من كتاب هيسل ومن دعوته إليهم بالغضب، وها هم يتمردون اليوم على أوضاعهم الاقتصادية، مطالبين بحقوقهم، ومعتصمين في ساحة بويرتا ديل سول تحت شعار "الغاضبون" (Los Indignados)، وقد تبعهم اليوم شباب اليونان.

ختاماً، نسأل أنفسنا: تُرى، هل قرأ الثوار في تونس ومصر واليمن وليبيا وسورية مانيفستو ستيفان هيسل (وإن لم يُنشر بالعربية بعد) عندما استنكروا أوضاعهم المزرية في أوطانهم، فغضبوا وتمردوا وثاروا على سلطات حكوماتهم القمعية في ساحات العديد من المدن العربية؟

مقتطفات من خاتمة الكتاب

نحو ثورة سلمية،
لفت انتباهي، كما لفت

انتباه غيري، ردات فعل الحكومة الإسرائيلية على موقف أهالي بلعين الذين يذهبون كل يوم جمعة إلى السور احتجاجاً على وجوده، من دون رمي الحجارة، ولا أي استخدام للعنف. لقد وصفت السلطات الإسرائيلية هذه المسيرة بـ"الإرهاب اللاعنفي". لا بأس... عليك أن تكون إسرائيلياً كي تصف اللاعنف بالإرهابي... ومع ذلك، يبدو أن الحكومة ارتبكت جداً من تأثير اللاعنف وما تستدره هذه البادرة من مساندة ودعم من طرف أعداء القمع في العالم.

إن الفكر الغربي الداعي إلى الإنتاجية المفرطة جر العالم إلى أزمة يجب الخروج منها بقطيعة مع آلية الهروب إلى الأمام الساعية لـ"المزيد دوماً" في المجال الاقتصادي، كما في مجال العلوم والتكنولوجيا. لقد حان الوقت كي ترجح كفة الأخلاق والعدالة والتوازن، فهناك مخاطر عديدة تهددنا، وربما تقضي على سيرورة حياة الإنسان فوق هذا الكوكب.

[.....]

كيف أختم ندائي هذا الذي يحث على الغضب؟ ربما بما قلته في ٨ آذار/ مارس ٢٠٠٤ بمناسبة احتفالنا بالذكرى الستين لبرنامج المجلس الوطني للمقاومة ولقوات فرنسا الحرة (١٩٤٠ – ١٩٤٥): "لقد انتصرنا على النازية بفضل تضحيات إخوتنا وأخواتنا في المقاومة والأمم المتحدة، وبما قاموا به ضد البربرية والفاشية. إلّا إن هذا التهديد لا يزال قائماً، وغضبنا على الظلم لم يهدأ."

كلا، لم يختف هذا التهديد من حياتنا، ولهذا ما زلنا ننادي بـ"ثورة سلمية حقيقية على جميع وسائل الإعلام الشعبوية التي لا تقدم إلى شباب اليوم غير أفق الاستهلاك واحتقار الضعفاء والثقافة، وداء النسيان، والمنافسة الشديدة من الجميع نحو الجميع."

وإلى كل مَن سيقوم ببناء القرن الواحد والعشرين، أقول بمحبة: الإبداع هو المقاومة والمقاومة هي الإبداع.

رانية سمارة
مترجمة وكاتبة سورية